لمحات من المبالغة في الشعر الصوفي

م. منير عبيد نجم
كلية التربية الأساسية/ جامعة بابل

التمهيد

المبالغة في اللغة والاصطلاح: المبالغة مصدر الفعل (بالغ) جاء في اللسان "بالغ يبالغ مبالغة وبلاغا اذا اجتهد في الامر والمبالغة ان تبلغ في الامر جهدك"(١) والمبالغة في الشيء الاجتهاد فيه والاستقصاء والمغالاة(٢) فهي تشتمل بذلك على الجهد سواء أكان جهدا ماديا ام معنويا بصورة استقصائية تصل إلى حد الغلو.

وفي اصطلاح البلاغيين صنف من المحسنات المعنوية احد فنون علم البديع شأنها في ذلك شأن التورية والطباق والمشاكلة ومراعاة النظير والاستطراد وغيرها. يذكر ابو هلال العسكري في كتابة (الصناعتين) ان المبالغة هي "ان تبلغ بالمعنى اقصى غاياته وابعد نهاياته ولا تقتصر في العبارة عن ادنى منازله واقرب مراتبه"(٣) ومثّل لها بقوله تعالى "يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى"(٤) وعرفها ابن رشيق القيرواني فقال "فمن احسن المبالغة واغربها التقصي وهو بلوغ الشاعر اقصى ما يمكن من وصف الشيء"(٥)، غير ان هذا المصطلح كان اكثر دقة وضوحا عند الخطيب القزويني فقد كان تعريفه جامعا مانعا فالمبالغة عنده "ان يدعى لوصف بلوغه في الشدة والضعف جدا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن انه غير متناه"(٦)، واكثر ما يهمنا في هذا التعريف كلمة (يدعى) ففيها اشارة إلى ان المبالغة لا تخضع لمعايير الواقع المادي في الاصل وانها لا تعدو كونها مجرد ادعاء وقد يكون ذلك الادعاء مستحيل الوقوع أو ان فرص تحقيقه ضئيلة جدا.

وللمبالغة مستويات فنية جمالية ثلاثة هي التبليغ والانحراف والغلو(٧)، ولا يفوتنا هنا ما ذكره العلوي في طرازه ان للعلماء في المبالغة مذاهب في كيفية مدخلها في الكلام وافادتها لما تفيده وهل تعد من فنون البديع ام لا؟ وهذه المذاهب هي(٢):

المذهب الاول:

انها غير معدودة من محاسن الكلام ولا من جملة فضائله ومن هؤلاء الذين يرون هذا الرأي من رفضها لأنها كذب ومنهم من رأى ان مستعمليها انما عمد اليها لعجزه عن استعمال المألوف والاختراع الجاري على الاساليب المعهودة.

المذهب الثاني:

إن المبالغة من اجلّ المقاصد في الفصاحة واعظمها في البراعة وحجة من يرى ذلك ان خير الشعر اكذبه وافضل الكلام ما بولغ فيه.

---

(١) لسان العرب: ابن منظور: ٤٩٩١٨

(٢) ينظر: المعجم الوسيط: ٦٩١١

(٣) الصناعتين: ٨٧

(٤) سورة الحج: ٢

(٥) العمدة: ٩٧

(٦) التلخيص في علوم البلاغة: الخطيب القزويني: ٣٧٠

(٧) التلخيص في علوم البلاغة: ٩٥ ، الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة: محمد بن علي الجرجاني: ٢٢١

(٨) ينظر الطراز المتظمن باسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحيى بن حمزة العلوي: ٤٥٦، وينظر شعر محمد حسين ال ياسين . دراسة موضوعية: ١٨٨.

المذهب الثالث:

مذهب يتوسط بين المذهبين المتقدمين ومفاده ان المبالغة من فنون الكلام ونوع من محاسنه ولاشك في ان للكلام بها فضل بهاء وجوده ورونق وصفاء ولكن ليس على جهة الاطلاق فان كانت المبالغة جارية على جهة الاعتدال بالصدق فهي حسنه جميلة وان كانت جارية على جهة الغلو والانحراف فهي مذمومة ٠

غير ان هذا المذهب الذي توسط بين الاثنين غير متوسط فالمبالغة فن وليست لها علاقة بالجوانب الخلقية وسيأتي بيان ذلك في اثناء البحث٠

المبحث الاول: مبالغة التبليغ:

وهذا الضرب من المبالغة هو ان يكون الوصف ممكنا عقلا وعادة أي ليس مستحيلا[١] ولكنه مستبعد عقلا غير ان وقوعه صحيح[٢] ومنه قوله تعالى: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة"[٣]، فما هذه حاله فهو محدود في المبالغة ولوقال عوض هذه المقالة تواضع لوالديك لرأيته خاليا من ديباجة المبالغة وعاريا من ثوبها[٤] ومنها قوله تعالى "ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها"[٥] فعدم رؤية اليد في الظلام الكثيف ليست مستحيلة عقلا وعادة ومنه قول امير المؤمنين(ع): "ان البهائم همها بطونها وان السباع همها العدوان على غيرها وان النساء همهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها"[٦]، ومما لاشك فيه ان ليس كل النساء على هذا الحال ولكن ذكره مبالغة وهو ممكن عقلا وعادة ومن الشعر قول زهير[٧]:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الاصورة اللحم والدم

فلقد بالغ في حقيقة الانسان اذ جعلها منحصرة باللسان والقلب وبها يحصل تميزه عن سائر الحيوانات ولو قال عوض هذا الكلام تميز الانسان عن الحيوانات انما يكون باللسان والقلب لعزل البلاغة عن سلطانها ودفعها وازالها عن رفيع محلها[٨].

ولهذه المبالغة حضور متميز في الشعر الصوفي ومنها قول ابن الفارض[٩]:

ارج النسيم سرى من الزوراء

سحرا فأحيا ميت الاحياء

اهدى لنا ارواح نجد عرفه

فالجو منه مغبر الارجاء

فإحياء ميت الاحياء الذي هو النائم أو الغافل أو غير الملتفت امر ممكن عقلا وعادة الا انه يقرب إلى ان يكون مستبعدا وكل ذلك مبالغة ليكسب كلامه رونقا وجمالا وسلطانا والمبالغة نجدها حاضره في البيت الثاني اذ ان اهداء ارواح

---

(١) ينظر: التلخيص في علوم البلاغة: ٩٥، الاشارات والتنبيهات: ٢٢١

(٢) ينظر: تكوين البلاغة (قراءة جديدة ومنهج مقترح): علي الفرج: ٣٢٩

(٣) ينظر: الطراز: ٤٥٩

(٤) ينظر: الطراز: ٤٥٩

(٥) سورة اية

(٦) نهج البلاغة: خطبة (١٥٣): ١٥٢. ١٥٣

(٧) شعر زهير بن ابي سلمى: ٢٩

(٨) ينظر: الطراز: ٤٦٠

(٩) ديوان ابن الفارض: ٩

نجد التي اهداها العرف الذي سرى من الزوراء لم يكن امرا مستحيلا الا انه مستبعد ومثله قوله[١]:

قسما بمكة والمقام ومن اتى ال بيت الحرام ملبيا سياحا

ما رنحت ريح الصبا سيح الربا الا واهدت منكم ارواحا

ومن الجدير بالذكر اننا نجد ظاهرة ترافق مبالغة التبليغ وهي كثرة اقترانها بالقسم عند بعض الصوفية امثال ابن الفارض كما تقدم في البيتين المتقدمين

وكما في قوله[٢]:

قسما بالحطيم والركن والاس تار والمروتين مسعى العباد

وظلال الجناب والحجر والمي زاب والمستجاب للقصّاد

ما شممت البشام[*] الا واهدى لفؤادي تحية من سعاد

يتضح مما تقدم ان ابن الفارض يرسم صورة عن طريق المبالغة هذه وقد اتكأ عليها غير مرة وهذا مما يؤشر على الصوفية بصورة عامة اذ انهم حرموا شعرهم "من ذلك التنوع الغزير في طرائق التعبير واساليب الصياغة التي حفل بها الشعر العربي حتى خلا شعرهم . أو كاد . من أي تصوير مجازي"[٣].

وظاهرة اتكاء هذا النوع من المبالغة على القسم نجدها ايضا عند الحلاج الا انها قل حضورا منها عند ابن الفارض منها قوله[٤]:

والله لو حلف العشاق انهم موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا

قوم اذا هجروا من بعد ما وصلوا ماتوا وان عاد وصل بعده بعثوا

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

سقيا لايام مضت مع جيرة

كانت لياليا بهم افراحا

اذ جعل كل لياليه الخالية مع جيرته افراحا ولم يعثر تلك الليالي ما يشوبها مبالغة منه وهو كقول زهير المتقدم:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

او كقول الشاعر[٥]:

والناس الف منهم كواحد وواحد كالألف ان امورِ عنا

ومن مبالغة التبليغ ايضا قول ابن الفارض[٦]:

إذ ان الواحد بمنزلة الالف في كونه كافيا عنهم كل ذلك مبالغة في مدح الواحد من الناس من غير اغراق ولا غلو[٧].

---

(١) ديوان ابن الفارض: ٨٠

(٢) المصدر نفسه: ٨٤

(٣) (*) البشام: شجر زكي الرائحة ٠

(٤) الشعر الصوفي: عدنان حسين العوادي: ٢٤١

(٥) ديوان الحلاج: ١٢٧

(٦) ديوان ابن الفارض: ٧٩

(٧) البيت في الطراز: ٤٦٠

(٨) ينظر: الطراز: ٤٦٠

وشعر الحلاج وابن الفارض وكما هو الشعر الصوفي شعر قائم على غرضين[١].

أولهما: شد المجاهدة وحالات التطهير التي يجتازها الصوفي، والاخر: نقل احوال الوجد والتجلي التي يستشعرها الصوفي في باطنه ازاء الله٠والضرب الاول قريب في صياغته من الاتجاه الحسي المباشر في الشعر العربي وخصوصا شعر الزهد ولم تجد المبالغة حاضرة بصورتها الفنية مع هذا الضرب الا قليلا نحو قول ابن الفارض[٢]:

ودعت قبل الهوى روحي لما نظرت عيناي من حسن ذاك المنظر البهج بيد اننا نجد المبالغة بصورة عامة حاضرة مع الضرب الثاني حالة الوجد والتجلي اذ تقوم الرؤية الصوفية كثيرا على المبالغة ومنها مبالغة التبليغ كما في قول الحلاج[٣]:

فاذا مسك شيء مسني فاذا انت انا لا نفترق

مثله ايضا قوله[٤]:

فاذا مسك شيء مسني فاذا انت انا في كل حال

ويبدو لنا من الوهلة الاولى ان هذا الضرب اقرب إلى الغلو منه إلى التبليغ هذا اذا قطعنا الصلة بين النص –الشعر –وصاحبه –الصوفي– لأننا نقيم احكامنا وفاقا للواقع والحياة التي نعيشها لان الشعر شأن من شؤون الدنيا لا تمتد له حياة من دونها[٤] ولو عدنا بالصلة بين النص وصاحبه لتبين لنا ان ليس ثمة غلو فالصوفي يعيش عالما اخر لأنه نبذ عقله فالعقل قاصر عن معرفة الله وقد استعاض عنه بالحدس القلبي لا بعده ثمرة استدلال استقرائي لا شعوري دعمته قرون طويلة من الخبرة البشرية بل يعده وحيا باطنيا صرفا حصل عليه بالتأمل الذي يبلغ ذروته حين فناء الصوفي عن العالم وعن نفسه وقد توحد مع الله[٥] مثل ذلك قول الحلاج[٦]:

ذكره ذكري وذكري ذكره هل يكون الذاكران الا معا؟

وقوله[٧]:

روحه روحي وروحي روحه ان يشأ شئت وان شئت يشأ

وقوله[٨]:

وجوده بي ووجودي به ووصفه فهو له واصف

كل ذلك مبالغة في الانغماس والتوحيد مع الذات الالهية من خلال رؤية صوفية متفردة٠

---

(١) ينظر: الشعر الصوفي: ٢٢٧

(٢) ينظر: المصدر نفسه

(٣) ديوان ابن الفارض: ٧٥

(٤) ديوان الحلاج: ١٤٧

(٥) ينظر: الشعر الصوفي: ٢٤٧

(٦) ينظر: تاريخ الادب العربي، العصر العباسي الثاني، شوقي صنيف: ٤٧٦

(٧) الشعر الصوفي: ٢٢٤. ٢٢٥، وينظر: التصوف والتفلسف . الوسائل والغايات

(٨) ديوان الحلاج: ١٤٤

المبحث الثاني: مبالغة الاغراق:

وهذا الضرب يعني ان يكون الوصف ممكنا عقلا وعادة أي ليس مستحيلا ولكنه لا يقع خارجا[١] كقول الامام علي (ع): "اما حزني فسرمد واما ليلي فمسهد"[٢]، فعدم انتهاء الحزن طول الحياة وسهر الليالي ابدا مما هو ممكن عقلا الا انه لا يقع خارجا فذكره (ع) مبالغة في حزنه وغمه[٣] ومن قول الشاعر[٤]:

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

ان الشاعر يذهب إلى ان قومه من الجود في القمة فهم لا يكتفون ولا يقعون عن الحرام ضيفهم ما دام مقيما فيهم كما يفعل الاخرون وانما يتبعونه ويغمرونه بجودهم حيثما توجه واينما حل[٥] وهل ما يزعمه الشاعر لقومه من الجود البالغ امر مستحيل الوقوع؟ أفليس ممكنا من المنظور الواقعي ان يتتبع المرء ضيفه ويتعهده بالرعاية التامة في الحل والترحال ؟ابلى انه امر ممكن ذلك لان مقومات حدوثه واقعية غير وهمية ولا ننكر ان العادة لم تجر بذلك ولا ننكر ايضا ان ثمة كثيرامن الصعوبات تكتنف اخراج هذا العمل من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل بيد انه مع كل ذلك ممكن الوقوع ولذا فالمبالغة هنا اغراق وهي مقبولة ايضا[٦] ومن هذه المبالغة قول ابن الفارض[٧]:

فسكرت من ريا حواشي برده وسرت حميا البرء في ادوائي

فالسكر الذي حصل له وسريان (حميا البرء) امر ممكن الوقوع الا ان العادة على غير ذلك ومن هنا حصلت المبالغة ومثله . ايضا. قوله[٨]:

من فيه والالحاظ سكري بل أرى في كل جارحة به نباذا

فقد حصل له السكر من في محبوبه والحاظه بل ان في كل جارحة منه نباذا مسكرا يسكره وهذا الامر ممكن ولكن على غير العادة لعدم حصوله خارجا، ومثله قوله[٩]:

فأعجب من سكري بغير مدامة واطرب في سري ومني طربتيي

ومنه قول ابن الفارض[١٠]: كلم السهاد جفونه فتبادرت عبراته ممزوجة بدمائي

فالقول غير بعيد الحصول وممكن غير مستحيل الا انه على غير العادة فليس ثمة دماء تسيل مع الدموع ومثل هذه المبالغة قوله[١١]: فمن فؤادي لهيب ناب عن قبس ومن جفوني دمع فاض كالديم

---

(١) ينظر: التلخيص في علوم البلاغة: ٦٦٦، الطراز: ٤٦٠، تكوين البلاغة: ٣٢٩، المعجم المفضل في اللغة والادب: ميشال عاصي، اميل بديع يعقوب: ١١٠٥\٢

(٢) نهج البلاغة: خطبة (٢٠٢): ٢٣٤

(٣) ينظر: تكوين البلاغة: ٣٢٩

(٤) البيت في: المطول . شرح تلخيص مفتاح العلوم . التفتازاني: ٦٦٦، والاشارات والتنبيهات، ٢٢١

(٥) ينظر: في النقد الجمالي . رؤية في الشعر الجاهلي: د٠احمد محمود خليل: ٢٠١

(٦) ينظر: المصدر نفسه

(٧) ديوان ابن الفارض: ٩

(٨) المصدر نفسه: ٩

(٩) المصدر نفسه: ٩

(١٠)المصدر نفسه: ١٠

(١١)المصدر نفسه: ١٢٤

وقوله[١]:

سكرت بخمر الحب في حان حبها وفي خمره للعاشقين منافع

والسكر الصوفي "حال من الدهش الفجائي يعتري العبد فيذهله عن كل حس غير حضور الحبيب ويغمر نفسه بنشاط دفاق يوقد فيه الوله والهيمان وما كان ذلك ليحدث بالطبع لولا امتلاء القلب بحب الله[٢]، ويبدو ان ابن الفارض اكثر اغراقا من متقدمه الحلاج وهذا ما يظهره الاستقراء وربما كان مرجع ذلك إلى امرين اولهما: كون الشعر الذي وصل الينا من الحلاج اقل مما وصل الينا من ابن الفارض فاغلب شعر الحلاج مقطوعات جمعت من هنا وهناك وثانيهما: انه تأتى لابن الفارض من اساليب البيان ما لم يتأت لمتقدمه حتى حق لبعضهم ان يقرر ان ابن الفارض "عملاق شعر التصوف لا يكاد يدانيه احد في هذا المضمار وقد تفرد بصور لم يسبق اليهما"[٣].

وتظهر المبالغة في الاغراق في تجربه الصوفي بصورة عامة وابن الفارض بصورة خاصة لبيان الكمال الاعظمي دون ان تركز على الحد الاخر الذي هو النقص الاعظمي ولعل هذا يعود إلى ان الشاعر الصوفي يميل إلى الكمال وينشده ولا يلتفت إلى النقص الحاصل لغيره انما هو وله وقسمات في الحبيب وتبعا لذلك التصور جاءت المبالغة الشعرية لتميط اللثام عن المثل الاعلى الذي يتمثله الصوفي ومن ذلك قول ابن الفارض[٤]:

وملك معاني العشق ملكي وجندي ال سمعاني وكل العاشقين رعيتي

ترى اية مملكة يمتلكها هذا الصوفي ؟انها مملكة هائلة مداها بعيد والعاشقون جميعا هم من رعايا هذا الملك الصوفي! وهذا الامر ممكن الوقوع للشاعر نظرا اليه ودون قطع الصلة بين الشعر ومبدعه لأنه شاعر صوفي ولا يمكن قياس واقعه بواقعنا فالأمر مختلف كما تقدم ولكنه على غير العادة ولعله يدعونا لان نجمع بينه وبين عمر بن كلثوم وهو يفتخر بقومه[٥]:

لنا الدنيا ومن اضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

ولكننا لا نجمع بين الاثنين ذلك لان عمر بن كلثوم ابن الواقم لذا نحكم على قوله هذا بانه مبالغة غلو اما مبالغة ابن الفارض فهي مبالغة صوفي لا غلوا نظرا لما ذكرناه انفا فضلا عن ذلك فان مبالغة ابن كلثوم هذه لم يستنكرها الجاهليون بل قد عدها البعض من المعلقات والسر في ذلك كان يرى بعض المهتمين بالشعر الجاهلي هو "ادراكهم للبعد النفسي في هذه المزاعم فالشاعر يلوح بإرادة الاستعلاء ويمجد الطغيان ويشيد بالعنجهية القبلية ذلك لأنها تعني القوة والهيمنة انه يعبر عن التطلع إلى الوجود القبلي الاكمل وفق المعايير الجاهلية ذاتها، وهذه كلها امور حبيبة إلى نفوس الجاهلين وهي محط اعجابهم وتقديرهم[٦] "واذا كان الامر كذلك مع الشاعر الواقعي . الجاهلي . فهو مسوغ للشاعر الصوفي المتجرد الذي ينأى بنفسه عن الواقع، وتحفل تائية ابن الفارض الكبرى المعروفة بـ(نظم السلوك) بكثير من هذه المبالغات منها قوله[٧]: وكل الورى ابناء ادم غير ان ني حزت صحو الجميع من بين اخوتي

ديوان ابن الفارض: ٩٩

(١) الشعر الصوفي: ٢٠٠

(٢) مقدمة ديوان ابن الفارض:

(٣) ديوان ابن الفارض: ٤٥

(٤) شرح المعلقات السبع: ٦٣

(٥) في النقد الجمالي: ٢٠٤

(٦) ديوان ابن الفارض: ٤٦

وقوله[١]:

وروحي للارواح روحي وكل ما ترى حسنا في الكون من فيض طينتي

وقوله[٢]:

فعني بدا في الذرفي الولا ولي لبان ثدي الجمع مني درت

والمبالغة أيا كانت بوصفها فنا حينما تخضع لمعايير الدائرة الاكثر خصوصية دائرة الواقع النفسي ودائرة الشعور واللا شعور ودائرة التكامل والتداخل بين ما هو واقعي ونفسي وجمالي ومثالي واسطوري تصبح منجما خصبا للدلالات المتنوعة[٣].

المبحث الثالث: مبالغة الغلو:

وهذه المبالغة تقضي بان يكون الوصف مستحيلا عقلا وعادة أي ان حصوله على خلاف السنن الطبيعية[٤]، كما في قوله تعالى: "يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار"[٥] فإن اضاءة الزيت من دون ان تمسسه النار محال عقلا وعادة[٦] ومن هذه المبالغة قول ابي نواس في مدحه لهارون[٧]:

واخفت اهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

إذ زعم ان النطف ترتعد في الاصلاب رهبة وخشية من هارون افليس هذا هو المستحيل عقلا وعادة ؟!ولذا فالمبالغة هنا غلو[٨].

وهذا النوع من المبالغة يركن اليه الكثير من الشعراء يستعملونه في مدحهم وفي هجوهم[٩] ونجدها حاضرة في الشعر الصوفي بصورة لافتة للنظر ومنها قول الحلاج في رسالة إلى ابن عطاء[١٠]:

كتبت اليك ولم اكتب اليك وانما كتبت إلى روحي بغير كتاب

وهذا التوحد بين المرسل والمرسل اليه مستحيل عقلا وعادة الا انه منح الكلام رونقا وجمالا فنيا ومثله قول ابن الفارض[١١]:

وكل الجهات الست نحوي توجهت بما تم من نسك وحج وعمرة

وهذا أيضاً مستحيل ومستبعد عقلا وعادة وهو هنا يشير إلى قضية الكشف والتجلي التي تحصل لبعض المتصوفة .

---

(١) ديوان ابن الفارض: ٤٦

(٢) المصدر نفسه: ٥٨

(٣) ينظر: في النقد الجمالي: ٢٠٥

(٤) ينظر: التلخيص في علوم البلاغة: ٩٥، المطول: ٦٦٦، الاشارات والتنبيهات: ٢٢١، الطراز: ٤٦١.

(٥) النور: ٣٥

(٦) ينظر: تكوين البلاغة: ٣٢٩

(٧) ديوان ابي نواس

(٨) ينظر: في النقد الجمالي: ٢٠٢

(٩) ينظر: الطراز: ٤

(١٠) ديوان الحلاج: ١٢٢

(١١) ديوان ابن الفارض: ٣٥

وتؤدي بهم إلى الذوبان والفناء وهذه هي المعرفة الحقة[١] والذي نود ذكره هنا ان المتصوفة لا يعتمدون بالعقل فهو عندهم غير قادر على معرفة السر الالهي يقول الحلاج[٢]:

من رأسه بالعقل مسترشدا أ سرحه في حيرة يلهو

والمبالغة من هذا النوع ليست شططا فنيا في الادب الصوفي . شعره ونثره . ولا هي مرض ذهني انها . عندهم . حالة من السمو ورقي في المعرفة وهي في الوقت نفسه تشوق إلى الافضل والاكمل واستشراف للمثل الاعلى الذي يمكن ان يكون عليه الشيء وهي انتقال بالإرادة من دائرة ما هو كائن إلى دائرة ما ينبغي ان يكون، غير اننا نجد من النقاد من يأخذ على البلغاء تعويلهم على هذا النوع من المبالغة حين خروجها عن الحدود الواقعية الانسانية فهي عنده غلو تمجه النفس ويأباه الذوق ويرفضه العقل[٣] وهو هنا انما يستنير بقول حازم القرطاجني: "وانما ساغ في الشعر وقوع الكذب في الممكنات ولم يسغ في المستحيلات لان الامر اذا كان ممكنا سكنت اليه النفس وجاز تمويهه عليها والمحال تنفر عنه النفس ولا تقبله البتة[٤] "ولا بد هنا من الاشارة إلى ان هذه المبالغة كما يرى بعض المهتمين تختلف عند الكذب الذي هو الاخبار بوقوع شيء لم يقع مع استجهال السامع والابهام عليه بينما المبالغة نمط من الانماط البلاغية الادبية الشائعة على السنة المتكلمين وهي ابداع تصعيد الحدث وتطعيمه وشحنه بشحنات خيالية تنقل تفاعل المبدع إلى المتلقي ولذلك تدخل المبالغة الخطاب المقدس (النص القراني) دون ان تكون مستهجنة أو قبيحة بل تكون مما يزيد الكلام حسنا ويكسوه جمالاً[٥].

واذا كان هذا الامر بمستوى من المقبولية في الكلام الواقعي في العالم المادي فكيف يكون الامر مع الخطاب الصوفي فبلا شك يكون الامر سائغا ومقبولا٠

ويذكر البلاغيون ان (الغلو) من بين اقسام المبالغة يحسن اذا دخل عليه ما يقرب به إلى الصحة وما يقرب به إلى الصحة جمله امور اهمها[٦]:

١. لفظ (كاد) وما يتصرف منه كما في قوله تعالى: "تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا"[٧]

ودخول(كاد)جعل الاخبار على نحو المقاربة لا الحصول من ذلك قول ابن الفارض[٨]:

أخفيت حبكم فاخفاني أسى حتى لعمري كدت عني اختفي

اذ ان دخول فعل المقارنة منع حصول الاختفاء وهنا مبالغة جميلة فيها غلو مستعذب وكثير ما تكرر هذا المعنى عند ابن الفارض من دون استعمال فعل المقاربة نحو قوله[٩]:

قد تركت الصب فيكم شبحا ماله مما براه الشوق في

---

(١) ينظر: الشعر الصوفي: ٢١٧

(٢) ديوان الحلاج: ١٦٨

(٣) ينظر: في النقد الجمالي: ٢٠٢، والاسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية: عبد القادرعبد الجليل: ٥٣٧

(٤) منهاج البلغاء وسراج الادباء: حازم القرطاجني: ٢٩٤

(٥) ينظر: تكوين البلاغة: ٣٢٩ . ٣٣٠ ٠

(٦) ينظر: الاشارات والتنبيهات: ٢٢١، تكوين البلاغة: ٣٣٠

(٧) مريم: ٩٠

(٨) ديوان ابن الفارض: ١٠٤

(٩) المصدر نفسه: ١٢٩

وقوله[١]:

كهلال الشك لولا انه ان عيني عينه لم تتأي[*]

وهذا المعنى مأخوذ من قول المتنبي[٦]:

كفى بجسمي نحولا انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فالصوفية كثيرا ما اعتمدوا على تجارب غيرهم فقد لا يجدون في انفسهم قدرة على التعبير عما يعتلج فيهم فيجارون غيرهم من الشعراء وفي مقدمتهم العذريون[٧]

٢. لفظ (لو): كما في قوله تعالى "لو انزلنا هذا القران على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله"[٨]، ولا شك في ان (لو)اخرجت الكلام مخرج الفريضة لا الحصول ونجد ذلك في قول ابن الفارض[٩]:

برح الخفاء بحب من لو في الدجى سفر اللثام لقلت: يا بدر اختف

وقوله[١٠]:

محجب لو سرى في مثل طرته اغنته غرته الغرا عن السرج

وقوله[١١]:

كملت محاسنه فلو اهدى السنا للبدر عند تمامه لم يكسف

فاستعمال (لو) قرب الكلام من الواقع٠

٣. لفظ (لولا): ومنه قول المتنبي المتقدم وقول ابن الفارض[٥]:

وادمع هملت لولا التنفس من نار الهوى لم اكد انجو من اللجج

والمبالغة بعد ليست حكرا على عصر بعينه أو على فئة بعينها أو على مبدع دون اخر بل هي منهل ثر قديما وحديثا حتى اننا نجدها سمة للادب عامة وللشعر خاصة في العراق في القرن التاسع عشر على ما يذكر احد المهتمين(٦) فهي لا تخضع لمعايير الزمان والمكان أو الفئة والنوع وكانت اجمل ما تكون في شعر المتصوفةومحور المقبولية وعدمها هو فنية المبالغة وانسجامها مع الذوق الابداعي ليس غير.

---

(١) ديوان ابن الفارض: ١٠٥

(*) تتأي: من تأييت الشئ اذا تعمدت ان تقصد اليه

(٢) ديوان المتنبي

(٣) ينظر: الشعر الصوفي: ٢١٤

(٤) الحشر: ٢١

(٥) ديوان ابن الفارض: ١٠٤

(٦) المصدر نفسه: ٧٦

(٧) المصدر نفسه: ١٠٥

(٨) المصدر نفسه: ٧٥

(٩) ينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق . اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج: د٠ علي عباس علوان: ٤٨-٥٣.

الخاتمة

توصل البحث إلى جملة من النتائج نذكر اهمها:

١. لم نجد المبالغة حاضرة بصورتها الفنية مع حال المجاهدة وحالات التطهير التي يجتازها الصوفية ويقرب فيها الشعر الصوفي من شعر الزهد الحسي الا انها كانت حاضرة بصورة مميزة مع حال الوجد والتجلي٠

٢. بدا ان ابن الفارض اكثر اغراقا من متقدمة الحلاج من خلال الاستقراء وربما كان مرجع ذلك إلى امرين اولهما: كون الشعر الذي وصل الينا من الحلاج اقل مما وصل الينا من ابن الفارض فاغلب شعر الحلاج مقطوعات جمعت من هنا وهناك ٠

ثانيهما: انه تأتى لابن الفارض من اساليب البيان مالم يتأت لمتقدمه٠

٣. تظهر مبالغة الاغراق في تجربة ابن الفارض الشعرية لبيان الكمال الاعظمي دون ان تنشغل بالحد الاخر الذي هو النقص الاعظمي ولعل هذا يعود إلى ان الشاعر الصوفي يميل إلى الكمال وينشده ولا يلتفت إلى نقص غيره فجاءت المبالغة لتميط اللثام عن المثل الاعلى الذي يتمثله الصوفي٠

٤. حضور مبالغة الغلو في شعر الصوفية ليس شططا فنيا أو مرضا ذهنيا بل انها . عندهم حالة من السمو ورقي المعرفة وفي الوقت نفسه تشوق إلى الافضل والاكمل واستشراف للمثل الاعلى وينبغي هنا الا نقطع الصلة بين النص . الشعر . وصاحبه . الصوفي . فنحكم على المبالغة . التي قد تتضمنه . بانها غير مقبولة ومستهجنة لان العقل يرفضها . وربما العادة . وبإعادة الصلة بين النص وصاحبه يتبين بطلان الحكم فالصوفي لا يعتمد بالعقل لان العقل قاصر عن معرفة الله فهو يعيش عالما وواقعا اخر لا يمكن قياسه بواقعنا٠

المصادر والمراجع:

. القران الكريم

١. الاسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية: د. عبد القادر عبد الجليل، دار صفا للنشر، عمان ٢٠٠٢م.

٢. الاشارات والتنهيات في علم البلاغة: ركن الدين محمد بن علي الجرجاني(ت٢٩)، علق عليه: ابراهيم شمر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢م.

٣. تاريخ الادب العربي . العصر العباسي الثاني: د. شوقي صنيف، منشورات ذوي القربى، قم، ١٤٢٦هـ.

٤. التصوف والتفلسف . الوسائل والغايات: د. صابر طعيمة، مكتبة قدبوط، ٢٠٠٥م.

٥. تطور الشعر العربي الحديث في العراق . اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج: د. علي عباس علوان، منشورات وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٥م.

٦. تكوين البلاغة . قراءة جديدة ومنهج مقترح: علي الفرج، دار المصطفى لإحياء التراث، قم، ١٣٧٩هـ.

٧. التلخيص في علوم البلاغة: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الشافعي الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، بيروت ١٩٩٧م٠

٨. ديوان ابن الفارض، اعتنى به وشرحه هيثم هلال، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٣م٠

٩. ديوان ابي نواس، عبد الله الجبوري، دار الكتب، ١٩٨٥.

١٠. ديوان الحلاج، ومعه اخبار الحلاج وكتاب الطواسين، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت ٢٠٠٢م.

١١. ديوان المتنبي.

١٢. شرح المعلقات، الزوزني، دار العلم، ط٢، بيروت، ١٩٧٠.
١٣. شعر زهير بن ابي سلمى، صنعة الاعلم الشنتمري، تح: د. فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت ٢٠٠٢م.
١٤. الشعر الصوفي حتى اقول مدرسة بغداد وظهور الغزالي: د. عدنان حسين العوادي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد د٠ت.
١٥. شعر محمد حسين ال ياسين دراسة موضوعية فنية: صاحب رشيد موسى، دار الشؤون الثقافية العامة، بيروت ٢٠٠١م.
١٦. الطراز المتظمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: السيد يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.
١٧. العمدة، ابن رشيق القيرواني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٢.
١٨. في النقد الجمالي ـ رؤية في الشعر الجاهلي: د. احمد محمود خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٦م.
١٩. كتاب الصناعتين، ابي هلال العسكري، دار العلم، بيروت، ١٩٦٨.
٢٠. لسان العرب: جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم منطور المصري (ت٧١١هـ): حققه: عامر احمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل ابراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
٢١. المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم): سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠١م.
٢٢. المعجم المفصل في اللغة والادب: د٠ اميل بديع يعقوب، ود٠ ميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت د٠ت.
٢٣. المعجم الوسيط: اخرجه: ابراهيم مصطفى واخرون، دار الدعوة، استنبول د٠ت.
٢٤. نهج البلاغة والمعجم المقدس لالفاظه: مجموع ما اختاره الشريف الرضي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٩٠.